

حظ أبي تمام من بيت الخلافة

- ١ -

للاستاذ عبد الحميد راضى

أحدثكم عن حظ أبي تمام من بيت الخلافة ، ويحدثكم أبو تمام عن حظه من بيت الخلافة كذلك .

وحدثني تاريخ يستمد من الأدب العربى قوة ؛ وحدثه أدب ينطوى على أوضح صفحات التاريخ ؛ وفى التاريخ والأدب مقنع ورضا لمن ينشد من وراء البحث الاقتناع والرضا .

وأبو تمام هذا علم من أعلام الأدب ؛ طالع الناس بشعره ، وطالع الناس شعره ؛ فى أيام المأمون والمعتصم والواثق — فأوا فيه جدة بل ثورة على ما ألفوا ؛ وكلفا بألوان الجمال ، التى سميت فيما بعد بالبديع ، وقد عهدوها ثارا غير مروم فيما عرفوا .

وكان حظه لهذا من الرضا والسخط حظ كل جديد ، يراه المحافظون من جانب ، ويراه الأحرار من جانب ؛ فيبدو لقوم مليئاً بالمغايب خلوا من الحماد ، فيضيقون به وينقمونه ؛ ويتراعى لآخرين مظهرا للفكر الحى ، وصفحة من الأدب الخالد ، فيضفون عليه ثوب الرضا ويؤثرونه .

وهنا تتباين الآراء ، وتتجلى الفرقة فى الحكم ، تبعاً لاختلاف المقاييس وتباين وجهات النظر .

والصراع الفكرى قديماً وحديثاً إذا اشتد — لا يضير المتحدث عنه ، ولكنه ينفعه ؛ ولا يدينه من مهاوى الخول ، وإنما إلى منابه الذكر يرفعه .

وهذا العهد قد شهد من الاختلاف في الرأي ، واللدد في الجدل حول هذا الشاعر — ما لم يشهده قبله عهد في شاعر عربي .
والنقاد والأدباء تيسر لهم من وسائل النقاش ، وضوابط المنطق — ما لم يتح قبل لغيرهم في عهد عربي .
وليس من العسير بعد ، أن ندرك المدى الذي بلغه النقدة في تناول هذا الشاعر ، بتعقب عثراته أو نشر حسناته ؛ وأن ندرك أن شعره كان مادة خصبة لمساجلات عنيفة ، لم تبق قصراً على ندوات العلم وحلقات الدراسة ؛ وإنما كانت أحاديث يتناقلها الرواة ويردد صداها الآفاق ، وأن ندرك كذلك المكانة التي تبوأها في دولتي الشعر والجاه ، وقد كانت بين الشعراء من السمو بالمحل الذي يقصر دونه جهد الطامحين ، وكانت بين عظماء الدولة وقوادها وولاتها من القرب والنفوذ بالميزلة التي تعز على النابغين المجدودين .

ذلك كان حظ أبي تمام ، وتلك كانت مكانته ، في غير بيت الخلافة ؛ وقد كان خليفاً أن ينال بمواهبه لدى الخلفاء وأبناء الخلفاء ما يوائم هذا الحظ وتلك المكانة ؛ ولكن تعاقب الأيام قد جعله يدرك ما لم يدخل في حساب تقديره وعنت الزمان قد أراه ما لم يستطع له دفعاً بقوة حيلته وأحكام تديره .
وماذا عسى أن يفعل الشاعر ، إذا كان الزمن قد طوى بظهوره أحفل صفحة من صفحات مجد الشعراء ، وبدأ يسجل في صفحة جديدة تباشير انصراف الخلفاء عن الشعر ، ورغبة بيت الخلافة عن قائله .
ماذا عسى أن يفعل إذا كان سوء الطالع يأبى عليه حظ الشعراء السابقين ، ولا يسمه بالحرمان فحسب ، بل يجعله مبدئاً لتاريخ المحرومين :

— ١ —

تحول هذا الشاعر العبقري بآماله عن مصر والشام إلى الخليفة المأمون ؛ نادماً على يوم قضاه بعيداً عن رحابه ، راجياً أن ينال لديه ما لم ينل من ولاته وكتاب خراجهم ، مرسلًا شعره بما يساور نفسه من تقصير ورجاء قاتلاً :

خاب امرؤ نحس الزمان لسعيه فاقام عنك وأنت سعد الأسعد
 ذاهباً به الخيال في المامون وكرمه مذاهب يصورها لنا قوله فيه :
 ما زال يمتحن العلا ويروضها حتى اتقته بكيما السودد
 فكانما ظفرت يدها بالمني أسرا إذا ظفرت يدها بمجند
 ولكن هذا لم يحقق له أملاً ، ولم ينله رجاء ؛ فقد وجد أبواب المامون أمامه
 موصدة ، ووجد المامون عنه في شغل .

وقد يكون العلم والثقافات ، وقد تكون المناظرات الدينية وإغرام الخليفة
 بها ، وقد تكون الثورات والحروب ، وبخاصة ثورات مصر ، وحروب بابل
 والروم ، قد يكون سبب من هذه الأسباب مرد ما جنى الشاعر من إخفاق ،
 وقد تكون هذه الأسباب مجتمعة ، وقد تكون أسباب أخرى غير ما ذكرنا ،
 فالشيء الذي لا شك فيه أنه لم ينل حظوة لدى المامون ، بل لم ينل منه قرباً .

(ب)

هذا أمره في عهد المامون . وأما أمره في عهد المعتصم فقد كان أبعد على
 العجب والرتاء معاً ؛ لا لأن الرجل لم ينل قرباً ولم يظفر بعطاء ، ولكن لأنه
 بالجهاد الجاهد ، والشفعاء المقربين ، انتهى إلى قرب أشبه بالبعد ، وعطاء أقرب
 إلى الحرمان ، ومنزلة إن ورثت شيئاً فأنما تورث الغم وتحطيم الأمل :
 لم يتوان أبو تمام في التماس الزلفى لدى المعتصم والقرب منه ، وما ظنك
 بمن كان من شفعااته الوزير ابن الزيات ، وقاضى المظالم أحمد بن أبي دؤاد ؛
 ولم يقصر كذلك في مدحه وربط آماله به . وحسبه أنه القائل فيه :
 إلى قطب الدنيا الذي لو بفضله مدحت بنى الدنيا كفتهم فضائله

هو البحر ، من أى النواحي أتته فلجته المعروف ، والجود ساحله
 تعود بسط الكف ، حتى لو أنه ثناها لقبض لم تطعه أنامله
 ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها ، فليتي الله سائله

رجاؤك للباغي الغنى عاجل الغنى وأول يوم من لقائك آجله
وقد أقام على هذا المدح ، وذلك الالتماس للزلفى أعواماً خمسة من حكم المعتصم
بل تزيد شهراً ، إلى أن سنحت الفرصة بفتح عمورية ، فتقدم ههنا بهذا الفتح
المبين ، منشداً إحدى قصائده الخالدة . وظن أنه بهذا قد نال غايته وأرضى الخليفة
وظفر بالأمنية العظمى التي صبر وصابر في سبيلها ؛ ولكنه كان في هذا التقدير
مسرّفاً مخدوعاً ، فإن هذه الفرصة التي انتهزها لم تزده من الخليفة إلا بعداً ، ولم
تزد الخليفة فيه إلا زهداً . ولم يك هذا لذنوب جنه وتقصير أناه ، ولكن لأنه
أجش الصوت سيء الأداء .

على أن أبا تمام لم يبتس لهذا ولم يبتس ، فاختص خلاله اللباقة وسعة الحيلة ،
وسرعان ما وجد الحل طبعاً يسوراً ؛ فإذا كانت الطباع لا تبدل ، والأصوات لا تعار ،
فإن الاستعانة بمن ينشد الشعر في الطاقة ، وفي هذا تخلص من المأزق وبلاغ .
فاستعان بغلامه صالح ، وقد كان حسن الصوت جميل الإنشاد ، ثم حظى
بالمثل ، وحظى غلامه بالإنشاد ، ولكن شعره يذبتنا بأنه لم يتقدم خطوة ولم
ينل خطوة .

يذبتنا بأن اليأس قد غمره ، فأقنى بشاشته ، وكاد يفنى أمله ؛ وأيقظه من
حلم صحبه طويلاً ، فأمن بأن الخليفة راغب عن الأدب ورعايته ، وأن سعيه في
سبيل الخطوة لديه جهد ضائع وطب غير ناجع . فاتجه بما بقي يتردد في نفسه
من رجاء ، إلى أبناء الخليفة يلتمس القرب والعطاء ؛ فاستطاع أن ينشد شعره
أمام أحمد بن المعتصم ، وأن ينال لوناً من ألوان الخطوة لديه ، ولكن هذا لم
يحقق أمانه ، فلم يك أحد ولى عهد ، ولم يكن من كبر السن بحيث يستطيع أن
يفهم الشعر وير المغانم .

— ح —

هذه صورة لما انتهى إليه أمره في عهد المعتصم ، فلما ولى الواثق تقدم إليه
مهتماً معزياً بالقصيدة التي منها :

لله أي حياة انبعث لنا يوم الخميس وبعد أي حمام

ما إن رأى الأقسام شمساً قبلها أفلت فلم تعقبهم بظلام
وتجدد رجاؤه وعظم أملة ، فأسرف في مدح الواثق ، بل غلا غلواً كبيراً ؛
حيث يقول في مقطعه :

هارون يا خير من يرجى لم يطع الله من عصاكا
لو كان بعد النبي وحى إلى ولي لكنت ذاكا
واستعان بالشفعاء عليه ليبلغ من الخطوة في هذا العهد ما لم يبلغه في العهدين
السابقين ، ولكن عثار الجد كان لازال يظل منزلته من الخلفاء ، فلم يبلغ بمدائح
وشفعاته أكثر مما نال قبل ، وانصرف عنه الخليفة انصرفاً كان من مظاهره أخذ
ابن أبي دؤاد بالأسراف في عطائه :

حدثنا التاريخ أن الواثق قال لأحمد ابن أبي دؤاد يوماً : يا أبا عبد الله ، رفعت
إلى رقعة فيها كذب كثير . قال : ليس بعجيب أن أحسد على منزلتي من أمير
المؤمنين فيكذب علي . قال الخليفة : زعموا أنك أعطيت شاعراً ألف دينار
(وهو يعنى بكلمة شاعر أبا تمام) . قال ابن أبي دؤاد : ما كان ذاك ولكني أعطيته
دونها ، رعاية كما قال للمعتصم غفر الله له ، في أمير المؤمنين أعزه الله :

فاشدد بها دون الخلافة إنه سكن لوحشتها ودار قرار
واقعد علمت بأن ذلك معصم ما كنت تتركه بغير سوار
فابتسم الخليفة ، ونجا ابن أبي دؤاد من المؤاخذه وهذا الخبر واضح الدلالة
على أن الواثق كان لا يرتاح لاجزال العطاء للشعراء ، وأنه كان يعد الأخبار التي
تصل إليه عن هذا من المزاعم التي لا تصدق ، أو من الذنوب التي لا تغفر .

فهذه مكاتته من الخلفاء ، وهي مكانة لا أستطيع أن أرتقي بها إلى ما يسمى
خطوة ، فالخطوة تقوم على الرغبة والإيثار ، وتناهى عن الشفاعة والشفعاء .
ويصحبها القرب ورفع الحجب .

وقد يرتاب في حكمي هذا كثيرون من الأدباء ومؤرخي الأدب ، وليس
بعجيب أن يرتابوا ، بل العجيب ألا يكون هذا الارتياب بالغاً من القوة والعنف
حد النفي والامتناع .

وذلك لأنهم يقرءون في أحدث الكتب ظهوراً لأعلام الأدب ومؤرخيه :
أنه ، اتصل بالخليفة المعتصم ومدحه وحظي عنده . . . ويقرءون كذلك لكبار
المستشرقين ، في دائرة المعارف الإسلامية : أنه ، كان أكثر توفيقاً في
بلاط المعتصم ، ، وأنه ، كافأه على قصائده التي مدحه بها كما اصطحبه في حملته
على عمورية عام ٢٢٣ هـ ، ، وأنه ، نال أيضاً رضا أحمد بن المعتصم وابنه وخلفه
الواثق ، .

وفي هذا قوة تدفع القارىء إلى إنكار ما قلت ، وإلى الإصرار على هذا الإنكار .
ففيه من الوضوح ما يبعث على الاقتناع بما كان للشاعر من حظوة بلغت حد
الاصطحاب في حملة عمورية .

وإني أمام هذا الاقتناع ، وبين هذا الإجماع — مضطر إلى أن أحكم إلى أبي
تمام نفسه ، فكلامه مقطوع للخصومات ، وفصل لا ترتقي إليه الشبهات . والذي
يشيع في نفس الغبطة أنه لم يقصر في تناول هذه الحظوة في شعره ونثره ، ولم
يعطنا فكرة غامضة وعبارة ملتوية ، بل كان صريحاً في تناولها ، جريئاً في الحكم
على الخلفاء بسببها :

تحدث أبو تمام يوماً فقال : امتدحت المعتصم بسر من رأى بعد فتح عمورية ،
فذكرني ابن أبي دؤاد له ، فقال له : أليس الذي أنشدنا بالمصيصة الأجرش الصوت ؟
قال : يا أمير المؤمنين ، إن معه راوية حسن الانشاد ، فأذن لي ، فأنشده راويتي
مدحى له .

فهذا حديث لأبي تمام يدلنا على كثير :

١ — يدلنا على أن أبا تمام مدح المعتصم ، فزهد فيه ونقمه لجشة في صوته ،
وأن أبا تمام فطن لهذا أو فطن له غيره فأقضى به إليه .

٢ — ويدلنا كذلك على أنه ذهب بعد إلى سر من رأى مصطحباً معه من
يحسن إنشاد شعره أمام الخليفة ، وأن ابن أبي دؤاد بعد أن علم ما أعد من
وسائل النجاح — التمس الاذن له ، فأبدى الخليفة رغبته في عدم سماعه قائلاً :
أليس الذي أنشدنا بالمصيصة الأجرش الصوت ؟

فقال ابن أبي دؤاد . يا أمير المؤمنين ، إن معه راوية حسن الانشاد ، فاذن له . وهذه حقائق ناطقة لا أثر للبس فيها ، دالة أوضح دلالة على أنه لم يكن أثيراً ولا حظياً ، وإنما كان الأجش الصوت المرغوب عن سماعه .
 ويزيد هذا الخبر قوة في الدلالة على ما نريد أنه كان بعد فتح عمورية ، أى بعد تولى المعتصم بأكثر من خمس سنين . ومدة المعتصم في الخلافة ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام .
 وأبو تمام يقصد إلى هذه الحادثة وإلى أمثالها دون شك حين يمدح ابن أبي دؤاد بقوله :

لما انتضيتك للخطوب كفتها والسيف لا يكفيك حتى ينتضى
 ما زلت أرقب تحت أفياء المنى يوماً بوجه مثل وجهك أيضاً
 كم محضر لك مرتضى لم تدخر محموداً عند الإمام المرتضى
 لولاك عز لقاءه فيما بقى أضعاف ما قد عزنى فيما مضى

وفى البيت الأخير أقوى برهان على أنه كان بالمنزلة التى لا يحسد عليها ، وأنه كان يعز عليه اللقاء . فما بالك بالاصطحاب فى رحلة طويلة كحملة عمورية .
 وقرأ البيت الثالث فهو يدل على أن ابن أبي دؤاد كان لا ينى فى كل مناسبة عن التنويه به ، ولا يفتر عن محاولة إدنائه من الخليفة ، وغمره بالعطايا . ولكنه بقى إلى ما بعد فتح عمورية الأجش الصوت ، المرغوب عن سماعه .
 وما أدراك ما ابن أبي دؤاد ؟ ابن أبي دؤاد هو مستشار المعتصم ، وقاضى المظالم فى عهده ، وهو الرجل الذى أوصى المأمون أخاه المعتصم فى كتاب وصيته بمشاورته وملازمته إذ قال : « وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك ؛ أشركه فى المشورة وكل أمرك فانه موضع لذلك منك . »
 فصاحب هذه المنزلة هو الذى أتاح لأبى تمام أن يظفر بما ظفر به من لقاء وعطاء ، ولكنه لم ينجح فى إنالته الحظوة والقرب من الخليفة .
 وقد شغل هذا الأمر الشاعر وورثه الياس ، وجراه على أن يهجم على مكانة الخلافة ويحكم بانصراف الخليفة عن تشجيع الأدب ، وأن يطلب إلى الوزير ابن الزيات أن يعز الأدب بحايته وحمل رايته .

انظر إليه حين يمدح ابن الزيات فيقول :

إن الخليفة قد عزت بدولته دعائم الملك فليعزز بك الأدب
والباحث في موضوعنا لا يتطلب بعد هذا دليلاً ، ولكن الشاعر الذي
أصيب في آماله لا يكف عن اللهج بما يشف عن يأسه وألمه ، استمع إليه وهو
يخاطب أحمد بن الخليفة المعتصم حين استطاع أن يتصل به ، ويحظى بقربه منه ،
وإنشاده شعره بنفسه ، دون وسيط من المنشدين :

هدأت على تامل أحمد همتي وأطاف تقليدي به وقياسي
غلب السرور على همومي بالذي أظهرت من برى ومن إيناسي
عدل المشيب على الشباب ولم يكن من كبرة لكنه من ياسي
فهذا شعر باك يصور مدى يأسه ومدى أنسه بهذا اللقاء ، وهو في سبيل هذا
التصوير يرى أن شيبه ليس دليل كبر السن ، ولكنه من مظاهر اليأس . فهدوء
همته على تامل أحمد ابن الخليفة فيه كل معاني القنوط من حظوة الخليفة .

ولعلني بهذا قد استطعت أو لعل أبا تمام قد استطاع أن يقنع القارئ بأنه
لم ينل حظوة ، ولم يكن أثيراً لدى خليفة من الخلفاء .

وفي هذا ما نستأنس به ، بل ما يشجعنا على أن نقول مطمئين إلى ما نقول :

١ - إن المأمون كان أول الخلفاء العباسيين الذي شغلوا أو انصرفوا عن
الشعر ورعاية الأدب .

٢ - وأن الوزراء والولاة والقواد قد حملوا هذا العبء قبل أن ينتصف
العصر العصر العباسي الأول الذي نسمه بالأزدهار وبلغ الأدب أقصى حدود
الكمال فيه .

عبد الحميد راضي